جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان - قسم التاريخ
أستاذ المادة: د/ سمير مزرعي السنة الثانية ليسانس

المحاضرة الخامسة: مصادر تاريخ الجزائر المعاصر

1/ كتب الرحلات:

1-كتاب "رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الكبير" لأحمد بن محمد بن هطال التلمساني:

يُعتبر ابن هطال مؤلف هذه الرحلة، شخصية مهمة في تاريخ الجزائر، فهو مستشار وكاتب ودبلوماسي ومحارب، عاش فترة خصبة من تاريخ الجزائر، فالقرن الثامن عشر شهد زخما كبيرا وأحداثا تاريخية مهمة كانت جديرة بالتسجيل والبعث، ونظرا لأن ابن هطال تولي تلك المناصب الرفيعة والحساسة؛ فقد اكتسب ثقة الباي محمد الكبير، الأمر الذي جعله يأخذ منه تفويضا بمرافقته في حملته العسكرية إلى الجنوب الصحراوي (عين ماضي والأغواط وجبل عمورة) لتأديب بعض القبائل الممتنعة عن دفع الضرائب والدنوش، وقد أمره الباي بتدوين أخبار واحداث هذه الحملة التي عنونها بـ (رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي) ، وقد نشر الباحث الفرنسي جورجيوس "Gorguos" هذا العمل في المجلة الإفريقية.

فقد تضمنت الرحلة أخبارا جغرافية وعسكرية وثقافية واجتماعية مهمة جمع فيها بين الشعر والنثر، وقد تفرد بذكر كثير من الأحداث المهمة التي لا يتسنى لنا أن نجدها في غيرها من المصادر التاريخية الأخرى، وتشير إحدى الدراسات الأدبية لهذا الكتاب؛ على أنا تجليات المكان في هذه الرحلة لا يمكن أن تكون بصورة واحدة فهي متفاوتة ومتبّاينة، ويظهر تباين الأمكنة من حيث درجة اهتمام السّارد باتباع الأهمية الاستراتيجية من حيث الموقع والقيمة المعلوماتية والتاريخية التي تفيد للرحلة وأهدافها، فهو يعزز معلوماته التاريخية بذكر الأماكن التي حدثت فيها أحداث ووقائع الرحلة بأسمائها المحلية الأصلية المعروفة بين سكانها، غير أن ما يلاحظ عن هذا الكتب هو أنه كثير الأسجاع الركيكة، وكثير الألفاظ عامية المبنى، وإقليمية النزعة، كما أن صاحبه لم يرتب اخبار الكتب في فصول وأبواب كما جرت العادة عند كثير من المصنفين القدامى، ولعل ذلك راجع لضيق الوقت، وفقدان المهلة، لأنه قيده وكتبه أثناء رحلته، فكانت كتابته تقليدية بحتة فهو يعتمد على سرد الحوادث وذكر الواقع، ولم يطمع مادته العلمية بالتحليل والنقد.

2-كتاب المرآة لـ عثمان بن حمدان خوجة:

ويسمى كذلك هذا الكتاب بـ (لمحة تاريخية عن إيالة الجزائر) ، ويكاد يكون هناك إجماع على أن كتاب "المرآة" يعتبر الوثيقة الوحيدة التي حفظها التاريخ لنا؛ الشاهدة على هول الكارثة التي أوقعها الاحتلال الفرنسي بالجزائر العاصمة وما جاورها، فهو يوثق اللحظات الأولى لانطلاق عملية الاحتلال، بدءا من استلام الداي حسين ورحيله إلى المنفى، إلى غاية شروع الاستعمار الفرنسي في تطبيق استراتيجيات الغزو المدروسة والممنهجة، فهو بذلك يكون من أوائل الكتب التي صدرت بعد الاحتلال الفرنسي، وتناول أحداثه بكثير من التفصيل والتدقيق.

إن طبيعة التكوين العلمي لحمدان خوجة الكرغلي المنتمي إلى الأقلية التركية الحاكمة، وإتقانه بعض اللغات كالعربية والفرنسية والإنجليزية والتركية، وكثرة رحلاته إلى أوروبا واستفادته منها نتيجة واطلاعه على أحوال الشعوب والمجتمعات، وإلمامه بالتطورات السياسية

والاقتصادية الفكرية التي كانت تعيشها أوروبا بعد الثورة الفرنسية، وتفتح مداركه هي ما جعلت كتابه المرآة يتفرد بالشكل الاستثنائي المنقطع النظير إذا ما قورن بكتب معاصرة له من ناحية الشكل والمضمون والمحتوى، فقد ألف حمدان خوجة كتابه باللغة العربية في باريس سنة 1833 خلال مدة زمنية قصيرة، بعد أن أعلنت الحكومة الفرنسية أن ترسل لجنة تحقيق إلى الجزائر بطلب من أعيان مدينة الجزائر، وعلى هذا الأساس سعى حمدان خوجة إلى تقديم وثيقة تاريخية في شكل كتاب تضم معارف ووثائق وإحصاءات عن الجزائر قبل أن تباشر اللجنة زيارتها إلى الجزائر، وقد ضم الكتاب معلومات تتحدث عن الظلم الذي حل بالجزائر، مقارنا بين الوضعية التي يعيشها مجتمع الجزائر والمجتمع الأوروبي، كما تناول بإسهاب حياة أهل البدو والريف واخلاق البربر وعادات سكان السهول وطبيعة الحكم السياسي والاقتصادي والاجتماعي للحكم العثماني في إيالة الجزائر، ومعلومات مهمة ومفصلة عن الحملة الفرنسية والنزول في سيدي فرج والأعمال الفظيعة التي ارتكبها الاحتلال الفرنسي في الجزائر.

3-مذكرات الشريف الزهار: مذكرات أحمد الشريف الزهار (1781- 1872): ألف الحاج أحمد الشريف الزهار كتابه هذا بعدما فرغ من المشاغل الإدارية التي كانت موكلة له، إذ تولى مهمة نقيب أشراف الجزائر، كما كان في بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر كاتبا لدى الحاج أحمد باي بقسنطينة ثم لدى الأمير عبد القادر، وقد ساعدته هاته المناصب التي تقلدها في التقرب من رجال الدولة والاطلاع أكثر على حقيقة الوقائع التاريخية، لذلك نجد أنه في سنواته الأخيرة عمل على تقييد كل ما عايشه وما روي له من أحداث تاريخية وجمعها لنا عل شكل مذكرات شخصية، يعود الفضل إلى أحمد توفيق المدني في إنقاذ هذه المذكرات من الضياع، حيث استلم مسودتها من حفيد الزهار، الشيخ محمود، وقام بمراجعتها وإعدادها للنشر مع إضافة الهوامش والتعليقات الضرورية.

قدمت المذكرات وصفًا لعدد من المواقع البارزة في مدينة الجزائر، مثل المساجد، وألقت الضوء على عادات الجزائريين في الاحتفال بالمناسبات، بما في ذلك مشاركتهم في احتفالات الدولة العثمانية، بالإضافة إلى أخبار الحج. كما تناولت المذكرات انتشار الأوبئة خلال حكم الداي حسين، مع الإشارة إلى تفشي وباء جديد في الجزائر عام 1232هـ/1816م، والذي استمر حتى نهاية عام 1239هـ/1824م، ولم تغفل المذكرات الإشارة إلى التدهور الاقتصادي الذي سبق الاحتلال الفرنسي وتبعاته، بسبب الجفاف والجراد، مما أدى إلى انتشار المجاعات والأوبئة.

2/ الكتب التاريخة الفرنسية:

1- كتاب "(A.Hanoteau et A.Letourneux)" la kabylie et les coutumes kabyles" "منطقة القبائل والأعراف القبائلية" لأدولف هانوتو و أرستيد لوتورنو": أودولف هانوتو هو ضابط فرنسي، عين ملازما عند وصوله إلى الجزائر سنة 1845، وفي السنة الموالية تم توظيفه في الإدارة المركزية للشؤون العربية، فقد أسندت إليه مهمة التعرف على عادات وتقاليد المجتمع الجزائري بناء على رغبته ، ولذلك تعلم اللغتين العربية والأمازيغية . ثم أسندت له عدة مهام عسكرية فيما بعد لخدمة برنامج الاستعمار الفرنسي للتغلغل في أوساط مجتمع منطقة القبائل، فقد عمل جنبا إلى جنب مع المستشار القانوني لمحكمة الجزائر "لوتورنو" الذي التقى به صدفة في الباخرة المتجهة من الجزائر إلى مرسيليا، وكان هذا الأخير مطلعا على الفقه الإسلامي وتمكنا من اللغة العربية.

صدر كتاب "منطقة القبائل والأعراف القبائلية" في ثلاثة أجزاء وهو كتب ضخم، فقد بلغ مجموع صفحاته الإجمالية إلى 1238 صفحة، فقد خصص الجزء الأول منه لدراسة البنية الطبيعية والجغرافية لمنطقة القبائل، فقد ركز على تقديم تقرير مفصل عن التركيب البيولوجي للمنطقة كوصف الغطاء النباتي وأنواع الحيوانات والطيور البرية التي تزخر بها المنطقة، وقد سعى من خلال كتابه إلى تكوين خريطة جغرافية وبشرية عن العمران البشري بنظرة علمية قلما نجدها في كتب الرحالة الأوائل، فدرس بكثير من التفصيل والتدقيق الأجناس التي تستوطن المناطق الحضرية والريفية لمنطقة القبائل، والتوزيع الديموغرافي للأعراش والقبائل، وكل ما يتعلق بهوياتهم الشخصية كالدين واللباس والغذاء والأعراف والتقاليد، ومختلف النشاطات الزراعية والاقتصادية والصناعية، كما خصص الجزء الثاني منه لمختلف تنظيمات (تاجماعث) الذي يسير التنظيم الاجتماعي للمجتمع القبائلي منذ فجر التاريخ، وكل ما يتعلق بالعادات والتقاليد المنتشرة في الأرياف ولمدن القبائلية كعادات الزواج والطلاق والأفراح والحقوق والواجبات والتشريعات والقوانين المعمول بها.

2- كتاب "تاريخ إنتفاضة 1871 في الجزائر" لـ (لويس رين) " Histoire de L'insurrection de 1871 en L'Algérie" (Louis Rinn): إسم صاحب الكتاب الكامل هو (لويس ماري رين)، ولد في فرنسا سنة 1838، تقلد عدة مناصب، فقد كان رئيسا سابقا في المصلحة المركزية لشؤون الأهالي، ومستشار سابق للحكومة الفرنسية، وضابط جوقة الشرف، دخل إلى مدرسة سان سير وتكون فيها، قدم إلى الجزائر سنة 1864.

إن كتاب "تاريخ إنتفاضة 1871 في الجزائر" الذي صدر سنة 1891، والمقالين اللذان أصدرهما في المجلة الإفريقية ليعبران أيما تعبير عن المغالطات التاريخية التي أراد الكاتب تقديمها في طرحه التاريخي، سعيا منه للحط من قيمة ثورة المقراني والشيخ الحداد، وتقديم معلومات مضللة عن أحداثها والحط من قيمة شخصياتها إذ يصفهم بذوي الأفكار البالية والذهنيات العتيقة التي تجاوزها العصر بحكم أنها تقاوم القوانين العصرية وإشعاع الحضارة الفرنسية، إذ أن القراءة الجدية لمواضيع وعناصر هذا الكتاب، تدفعنا دفعا مستمرا إلى الاعتقاد بأن المنهج الذي كتب به كان منهجا استعماريا مطبوعا بحرب نفسية بسيكولوجية يحاول من خلالها تقزيم البنية الاجتماعية التي ظلت تحكم المجتمع القبائلي لفترات طويلة وبكفاءة عالية، إذ أن حديثه عن المجتمع القبائلي يقدم لنا إشارات واضحة أنه كان مستهدفا بغية عزله وتشويه تاريخه، فلا يوجد في نظره "شعب أو أمة أو كيان اجتماعي متماسك"، بل هناك قبائل وأعراش تحت رحمة حكم أسياد أو زعماء أو شيوخ، فغايته في كثير من المواضع في الكتاب إيصال أفكار سوداء ومضللة في حق المجتمع القبائلي مفادها أنهم اختاروا الانضواء تحت لواء الاستعمار الفرنسي بمحض إرادتهم، ووضعوا تحت سلطتهم مساحات شاسعة مقابل الحفاظ على وجودهم وامتيازاتهم، وإعفائهم من دفع الإتاوات والضرائب.

وتجدر الإشارة في ذات السياق إلى أن الكتاب اعتبر الأكثر اكتمالا حول تلك الثورة، وربما يكون هذه الشهادة التي قيلت في حقه أنه كان مؤرخها الرسمي الذي شهد وعاين أحداثها عن قرب، فقد شارك في قمع هذه الثورة في "جبل بوعريف" بالأوراس، ولهذا نجده خصص عدة أقسام في كتابه عن هذه المنطقة.